من أدب التراجم

الخليل بن أحمد

للأستاذ طه الراوى

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

كتاب سيبويه عن وحى الخليل

الخليل أول من فتق معانى النحو وضبط أصوله ، وبسط فروعه ، واستخرج علله وأسبابه ، ووسع فصوله وأبوابه ، وأوضح سبله ، وعبّد مناهجه حتى بلغ أقصى غاياته ؛ ولكنه ترفع عن التأليف فيه لأنه منهل كثر وراده فأوحى إلى تلميذه وخريجه « سيبويه » من دقائق مسائله وبنات أفكاره وأبكار تصوراته ما جعله حرياً بأن يشار إليه بالبنان ، وجديراً بوضع كتابه المشهور الذى أصبح للنحاة إماماً يقتدون به ويهتدون بهديه ، فمعظم ما فى الكتاب مغترف من سلسال علم الخليل ، ومقتبس من مصباح ذكائه . وكلما قال سيبويه : « سألته » أو « قال » من غير أن يذكر أحداً فإنه يعنى « الخليل »

كتاب العين أو « أبو المعاجم كلها »

علمنا أن الخليل قد طالت صحبته لخلص الأعراب وكثرت إقامته بين ظهرانيهم ، ثم إنه كان يحج بين العام والعام ، وكان يقابل فى طريقه إلى مكة فصحاء العرب وأقطاب بلغائهم فاجتمع لديه كثير من مفردات اللغة وفرائد دررها ، فعزم على جمع ذلك فى كتاب لم يسبق إلى مثله ، فرسم الخطة ورتب الأبواب على طريقة ابتدعها ، وأسلوب لم يسبق إليه ، وكان قد افتتحه بحرف العين فسماه (كتاب العين) على عادة الكتاب فى ذلك العصر ، فإنهم يسمون الكتاب بأول أبوابه ككتاب الجيم وكتاب الميم وكتاب الغين وكتاب الحماسة وغيرها . وهذا الكتاب أول كتاب ألف فى متن اللغة مرتباً على الحروف جمع فيه الخليل ١٢ر٣٠٥ر٤١٢ كلمة ، بعضها مستعمل وأكثرها مهمل . والذى حدا به لذكر المهمل استيفاء التقاسيم العقلية لكل كلمة ، فمثلاً كلمة (كتب) يحتمل فى الكاف الفتح والضم والكسر ويحتمل فى التاء الحركات الثلاث والسكون وثلاث فى أربع اثنتا عشرة سورة فيذكر الاثنتى عشرة صورة ويقول هذه الصورة مستعملة لمعنى كذا ، وهذه الصورة لم تستعملها العرب .

هذا الفضاء الرحب ، الفضاء المترامى الذى تسبح فيه الروح فلا تنتهى إلى غاية . هذا الفضاء خد . وكيف تصقل الأثير ، الأثير اللين الشفاف الخفيف ؟

لمة الشمس كعين لمعت نحو خليل

هل يرى القارئ عين الحبيب وهى تلمع نحو الخليل فتشبه لمة الشمس ؟ لا بد أنها عين حمراء تقدح الشرر وترسل اللهيب

رجفة الزهر كجسم هزه الشوق الدخيل

أنا أعلم أن الدخيل معناه الطفيلى فما هذا الشوق الطفيلى ؟ أهو الشوق الداخلى ؟ وهل ترى الجسم يهتز كرجفة الزهر ؟ لو أن الهزة كانت فى القلب لقلت شاعر يشارك الطبيعة بإحساسها ولكنه الجسم كله . يخيل إلى أننى أرى فيلاً يهتز بجوار وردة تتمايل على غصنها

حيث يممت مروج وعلى البعد نخيل

مروج ونخيل لا تخصيص فيها ولا اختيار . أين الفن فى يممت نحو المروج وعلى البعد نخيل . هذا نثر لا روح فيه

وأما غاية العجب فتأخذك من قوله :

قل ولا تحفل بشىء إنما الكون جميل

تسمع قل ولا تحفل بشىء ، فتنبه حواسك ، ويستيقظ إحساسك ، ويصحو عقلك لهذا التحدى القوى وتلك الشجاعة النادرة ، وتحسب أن الشاعر سيخرج على قانون من قوانين الوجود أو على حقيقة من الحقائق الإنسانية الثابتة ، ثم تنظر فإذا به لا يأتيك بغير هذه الجملة المبتذلة « إنما الكون جميل » . وأنت تتساءل عن سر هذا القصر وذلك التأكيد فلا تهتدى إلى شىء .

هذا هو شعر الشاعر الكبير فما بالك بشعر الشاعر الصغير ؟

محمد منصور

وقد جمع الخليل في كتابه هذا من غرر الشواهد ، ونوادر الفوائد ، وضروب الحصر ، ورصين القواعد ، وجليل المسائل ما يعز وجوده في معجم غيره . على أنه تضاربت آراء العلماء في نسبة هذا الكتاب إلى الخليل أو إلى بعض تلاميذه أو إلى الليث . وقد ألف ابن درستويه كتاباً خاصاً في شرح هذا الخلاف واستقصى الجلال السيوطي في المزهر جميع ما دار في هذا الموضوع من أقوال . ولكن نحن لا نرتاب في أن الخليل هو الذي رسم خطط هذا الكتاب ورتب أبوابه ووضع حجر الزاوية بيده ، أما أن غيره أكمله وزاد فيه فذاك أمر محتمل ، ولكنه لا يدفع الخليل عن كونه المجلّي في هذه الحلبة وأنه أول واضع لمعاجم اللغة مرتبة على حروف المعجم ، وأن من جاء من بعده إنما اقتبس من مصباحه واهتدى بمناره . ولم يزل جمهور الأدباء وأرباب البحث لهذا العهد يظنون أن هذا المعجم الجليل اغتالته أيدي الأيام فيما اغتالت من نفائس الأسفار وجليل الآثار ، ولكن من يمن الطالع أن عثر على نسخ منه أحد أدباء الحاضرة الهاشمية ، فسعى البحاثة المشهور صاحب (لغة العرب) بمقابلة تلك النسخ وتصحيحها باذلاً الجهد في تحري الصواب على عادته ، ثم شرع في طبعه ولكنّ بعد أن أنجز منه بضع كراريس حالت الحال ، وعرضت دون ذلك أهوال . ولا ندري هل بقي لتلك النسخ من أثر بعد أن تفرّقت كتب الرجل أيدي سبا ومزقت كل ممزق ؟

جرى كل ذلك قبل نحو بضع وعشرين سنة

وقد سلك الخليل في ترتيب حروف الهجاء مسلكاً لم يسبق إليه ، ذلك أنه رتبها حسب المخارج مع تغيير طفيف فجاءت على هذا الوجه : ع ح ه خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط د ت ظ ذ ث ر ل ن ف ب م و ا ى

قال الخليل : لم أبدأ بالهمزة لأنه يلحقها النقص والتغيير والحذف ، ولا بالألف لأنها لا تكون في ابتداء كلمة ، ولا في اسم ولا فعل إلا زائدة أو مبدلة ، ولا بالهاء لأنها مهموسة خفية لا صوت لها فنزلت إلى الحيز الثاني وفيه العين والحاء فوجدت أنصع الحرفين فابتدأت بها ليكون أحسن في التأليف . اهـ

هل نظم الخليل بقرض الشعر ؟

قالوا : كان ينظم البيتين والثلاثة كما سيأتي . وروى الإثبات أنه سئل لماذا لا تقرض الشعر مع سعة علمك بالعربية وتبحرك في علومها ؟ قال : « يأبى جيده وأبى رديئه » وهذا الجواب على إيجازه غاية في البلاغة وآية في الحكمة وحصافة الرأي

مؤلفاته

للخليل مؤلفات أبدع فيها أيما إبداع ولم يحتذ في تأليفها وتبويبها حذو من سبقه من أهل العلم . والذي يجيل النظر في سيرة هذا الرجل يتبين له أنه كان بريأ عن سلوك المناهج المعبدة في كل ما يكتب ويصنف ، ولذلك كان يسلك في التأليف طرقاً خاصة يؤم فيها الناس ولا يأتم بأحد . فمن تصانيفه :

١ — كتاب العين . وقد مرّ بك بعض أوصافه

٢ — فائت العين

٣ — كتاب الإيقاع . وهو في الموسيقا العربية ويظهر من مراجعة فهارس المؤلفات في هذا الباب أن الخليل يعتبر مجلي الحلبة في هذا المضمار

٤ — كتاب النغم . وهو في الموسيقا العربية

٥ — كتاب الجمل

٦ — كتاب الشواهد

٧ — كتاب العروض

٨ — النقط والشكل وقد أشرنا إليه آنفاً . وذكر الفاضل جورجي زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية ما نصه :

« في المكاتب الكبرى في أوربا مما ينسب إلى الخليل

١ — كتاب في معنى الحروف في مكتبة ليدن ومكتبة برلين

٢ — « شرح حروف الخليل في مكتبة برلين قطعة منه

٣ — « جملة آلات العرب في مكتبة أياصوفيا في الآستانة

٤ — قطعة من كلام عن أصل العقل في مكتبة اكسفورد (بودليان) ... »

زهده وورعه

كان الخليل من أولئك الفلاسفة الذين نظروا إلى هذا العالم نظر الازدراء ، ولم تخدعهم بهرجته ، ولا غرتهم زخارفه . أجل كان الخليل أحد زهاد الدنيا المتبتلين إلى الله تبتيلاً . ومن أنصع البراهين على ذلك أن أمير الأهواز « سليمان بن علي » أرسل إليه يلتمس منه الشخوص ليقيم بحضرته ويؤدب أولاده فأخرج